الحياة الفكرية في تلمسان قبل عهد بني زيان

د. لخضـر عـبدلـي
جامعة تلمسان

يبدو أن مدينة تلمسان نشأت من تكاثف التجمعات البشرية منذ آلاف السنين والحفريات تثبتت بوجود آثار لإنسان ما قبل التاريخ في المنطقة، والأمل كبير في أن تظهر حفريات أخرى لمزيد من الآثار، وذلك مما قد يساعد على تحديد دقيق لتاريخ نشأة المدينة وظروف تكوينها، ولم يقم بعد في حد علمنا بالتنقيب المنظم في الكهوف الكثيرة التي تحيط بالمدينة وما جاورها.

أنّ مدينة تلمسان لها أهمية تاريخية اكتسبتها من خلال موقعها الجغرافي الممتاز، فهي من بين المدن التي تكتنفها هالة من الاحتمالات والتخمينات سواء من حيث اسمها أومن حيث نشأتها ونموها العمراني.إذ يتكون اسمها من كلمتين" تلم" بمعنى تجمع"، سان" بمعنى " اثنان" البر والبحر، [1] وهي تقع في سفح جبل بني ورنيد المار جنوبها، ويسمى قبالتها بالصخرتين، ينحدر منها نهر سطفسيف المار شرقيها، إلى أن يلتقي بنهر يسر ثم بنهر تافنا، وتنحدر منه أيضا ساقية النصراني [2] فهي عريقة في القدم إذ كانت في القرن الثالث للميلاد على ما يبدو سوى مركز حربي أسسه الرومان أثناء احتلالهم لشمال إفريقيا وهذا المركز كان يحمل اسم "بوماريا" [3]ومعناه الحدائق وكان بالمكان المعروف اليوم" بأغادير"، ولم يترك الرومان أثناء احتلالهم للمنطقة آثارا ذات أهمية يعول عليها المؤرخون والباحثون إلا بضعة أحجار منحوتة عليها خطوط بحروف لاتينية، يضاف إلى ذلك ساقية للمياه بنوها في سفح جبل البعل، الذي يشرف على قرية العباد،ولازالت هذه الساقية تدعى إلى يومنا هذا" بساقية النصراني" وحسب قول يحي بن خلدون فإن الساقية كان يصب فيها من أعلى الجبل نهر "من ماء غير آسن تتجاذبه أيدي المذانب، ثم ترسله بالمساجد والمدارس والسقايات، فالقصور وعليّة الدور والحمامات فيفعم الصهاريج ويفهق الحياض وسقي بساتينها"[4]

وقد أشار إلى ذلك شاعرها الشيخ الصوفي أبي عبد الله محمد بن عمر بن خميس التلمساني بقوله: (الطويل)

لساقية الرومي عندي مزية وإن وغمت تلك الرّوابي الرواشخ
فكم لي عليها من غدو وروحة تساعدني فيها المنى والمنائخ [5]

ويقول عنها أبو عبيد الله البكري في كتابه "المسالك والممالك: "(اقادير تلمسان القديمة) فيها آثار من بقية النصارى إلى وقتنا هذا أي (القرن الرابع الهجري ولهم بها كنيسة معمورة وأكثر ما يوجد الركاز بتلك الآثار) [6]

ويقول عنها عبد الرحمن بن خلدون:"هذه المدينة هي قاعدة المغرب الأوسط وأم بلاد زناتة اختطها بنو يفرن"[7]،الزناتيون في عصور قديمة، ونظرا لأهميتها، وجمال موقعها نسج السكان حولها أساطير يحكونها عبر التاريخ من ضمنها الأسطورة التي تحكي "بأنها أزلية الوجود، وأن الجدار الذي ذكر في القرآن في قصة الخضر وموسى عليهما السلام هو بناحية أغادير منها " [8] غير عبد الرحمن بن خلدون يستبعد هذه الأسطورة مؤكدا قوله أن موسى لم يغادر المشرق ، وأن بني إسرائيل لم يصل نفوذهم إلى إفريقية "تونس" حاليا فضلا إلى ما وراءها من الأقاليم البعيدة مثل تلمسان، وقد فنّد ذلك بقوله هذا من قبيل التشيع الذي جّبل عليه الناس في تفضيل أوطانهم وبلدانهم[9] .

الحيـاة الثقافية في تلمسـان خلال ق 5و6 هـ :

العوامل المؤثرة:

إنّ قدم مدينة تلمسان يبعث على الافتراض بوجود تراكم عناصر ثقافية منذ العهود القديمة، لاسيما في المجال الفكري، إلاّ أننا لا نجد أي أثر لذلك، فيما لدينا من مصادر، وكل ما وصل إلينا من أخبار حول ذلك يندرج في فترة ما بعد الفتح الإسلامي لتلمسان وخاصة في الفترات المتأخرة من العصور الوسطى، وقد واجهت انتشار الثقافة الإسلامية والتعريب عدة صعوبات بمنطقة المغرب عموما وبتلمسان أيضا، هذه المدينة توجد في إقليم بعيد عن مراكز الإسلام والعربية، وفي منطقة جبلية يصعب فيها الاتصال بالسكان إضافة إلى العائق اللغوي، مما أثّر على مستوى التعريب بالمقارنة مع مدن أخرى من المغرب الإسلامي كالقيروان والمسيلة وكثير من مدن الأندلس [10]

هذا وكان لانتشار مذاهب الخوارج ودعوة الأمويين بالأندلس، وما طبع هذه النزعات والتيارات السياسية من رغبة في الاستقلال عن الخلافة الإسلامية في المشرق، وابتداء من القرن الخامس الهجري بدأت بعض العوامل المساعدة لذيوع التعريب بين سكان المغرب العربي تهي ئ الجو لنشأة الثقافة العربية الإسلامية، حيث أخذت صعوبة الاتصال بين العرب القادمين من المشرق والسكان المحليين تخفّ تدريجيا، نظرا لما قامت به الدول التي تعاقبت على السلطة في المنطقة من تأسيس للمدن والعمل على النهوض بالعمران[11] .

لقد كان للتطور العمراني علاقة بالازدهار الثقافي، فازدياد عدد المدن أدي إلى تزايد تحول المجتمع البدوي إلى مجتمع حضري، وشكل الإطار المناسب للإشعاع الفكري[12] .

وبعد أن تأسست مدينة تاقرارت (تلمسان الجديدة) بجانب أغادير من طرف يوسف بن تاشفين كانت خطوة حاسمة في تطور مدينة تلمسان، فقد أولاها المرابطون عناية خاصة، وجعلوها مقر ولاية المغرب الأوسط، وشيدوا بها قصرا أصبح مقرّا للوالي و بنوا المسجد الأعظم بجانبه كما شيد الأمراء والأعيان

منازل فخمة حوله، وأصبحت تلمسان منذ القرن الخامس الهجري تستقطب العلماء والأدباء والتجار وتتجه بخطى حثيثة نحو النمو الثقافي والحضاري ودارا للعلماء والمحدثين وحملة الرأي على مذهب الإمام مالك بن أنس [13].

وفي عهد الموحدين تواصل التوسع العمراني بموازاة مع تزايد النشاط التجاري وانتشار التعريب والثقافة الإسلامية بين المغرب الأوسط ومختلف الأقطار الإسلامية الأخرى قوة ونشاطا وتواصلت حركة هجرة العلماء من الأندلس إلى أقطار المغرب الإسلامي، مما ساعد على انتشار العلم بالمغرب الأوسط بصفة عامة وبتلمسان عاصمة الإقليم بصفة خاصة، فنبغ فيها كثير من العلماء ،كما صرف ولاة الموحدين نظرهم واهتمامهم بتحصين المدينة وتشييد أسوارها، فحشدوا الناس لعمرانها، وأقاموا بها الصروح والقصور واتساع خطة الدور ، وكان من أ عظمهم اهتماما بذلك أبو عمران موسى بن يوسف العسري بن عبد المؤمن، الذي أحاط المدينة بسياج من الأ سوار، وعلى غراره سار أبو الحسن بن أبي حفص بن عبد المؤمن"، وبقي عمران تلمسان يتزايد وخطتها تتسع [14]

وبصورة عامة، يمكن القول إن الحياة الفكرية، بالمغرب الأوسط خلال هذه الفترة امتازت بتقدم ملحوظ في مجال العلوم الدينية التي حظيت بعناية قصوى، وكذلك العلوم اللسانية ، وخاصة منها الشعر والكتابة الديوانية، وذلك بتشجيع من الخلفاء الموحدين وولاتهم، بحيث أن أغلبهم كان لهم نصيب وافر من العلم، وكانوا يرحبون بالعلماء والشعراء والكتاب، ويعينونهم في القضاء أو الدواوين ، وكانوا يجرون عليهم الأرزاق. أما العلوم الاجتماعية والطبيعية، فلم تعرف نموا هاما في هذه الفترة، وإنما ازدهرت بعد ذلك، في عهد بني زيان . [15]

سنتعرض في هذا البحث عن بعض أعلام تلمسان خلال العهدين المرابطي والموحدي ، سواء ممن أنجبتهم تلمسان أو استقروا بها، والذين أدرجهم يحي بن خلدون في كتابه بغية الرواد. [16]

ظهر نشاط دراسات الفقه والحديث والتفسير وغيرها من العلوم في المغرب الأوسط بالقرنين الرابع والخامس وأول السادس بصور رائعة، وقد كان غالب الفقهاء يدرسون الفقه والحديث ولا يقتصرون عليه وحده، ونجد من بينهم من سبق إلى شرح صحيح البخاري وموطأ الإمام مالك قبل غيره من الشراح [17]

1. أحمد بن نصر الداودي: وهو أول من اشتهر من علماء الشريعة أصله من المسيلة أو من بسكرة على ما يروى وانتقل إلى طرابلس الغرب طلبا للعلم ثم سكن تلمسان القديمة (أي أغاير) وبقي بها ينشر العلم إلى أن توفى بها عام 402 هـ وهو مدفون شرقي باب العقبة وضريحه مشهور، وكان لأبي جعفر أحمد بن نصر الداودي تلاميذ ومريدون كثيرون، وهو من الطبقة السابعة من علماء المذهب المالكي عند الإمام بن فرحون، وله تآليف عديدة أشهرها كتاب "النصيحة" وهو أول شرح لصحيح البخاري وكتاب "

النّاس" وهو شرح لموطأ الإمام مالك، وكتاب في الفقه دعاه "الواعي" في الفقه وكتاب علم الكلام دعاه "الإيضاح" في الرد على القدرية[18]

2. ابن غزلون: هو أبو جعفر أحمد بن علي، من أهل تطيلة، بالأندلس روي عن أبي الوليد سليمان بن خلف الباجي، ونبغ في الحديث، ورحل إلى المغرب الأوسط واستقر بتلمسان يحدث بها ،وأخذ عنه كثير من العلماء، وبها توفى سنة 524هـ [19]

3 . عبد الله بن عرجون: أبو محمد عبد الله بن خليفة بن أبي عرجون أصله من تلمسان وهو فقيه و محدث ،ولي القضاء في كثير من مدن المغرب والأندلس، وتوفى يتلمسان عا م534 هـ [20]

4. عثمان بن صاحب الصلاة: هو أبو عمرو عثمان بن صاحب الصلاة كان من أهل الدين والعلم والرئاسة على أهل بلده حسب ما ذكره يحي بن خلدون، و تولى خطة القضاء بتلمسان ومات مقتولا عام 542 هـ قتله تلميذه عبد المؤمن بن علي بوصية من المهدي بن تومرت إذ قال له:" اقتله فإن صفير الصاد من قوله لي: اشتغل بخويصة نفسك في إذني حتى الآن" وهو شارح" كتاب الأحكام الصغرى في الحديث[21]

5. علي بن أبي قنون: هو أبو الحسن علي بن أبي القاسم عبد الرحمن المعروف بابن أبي قنون ، أصله من تلمسان وبها درس الفقه المالكي وروى عن أبي علي الصعداني وابن أبي تليد وأبي عبد الله الخولاني وتولى خطة قضاء الجماعة بمراكش وبتلمسان وكان فقيها متبحرا توفى بتلمسان عام 557هـ

له كتاب في أصول الفقه سماه" المقتضب الأشفى في اختصار المستصفى" ومن المعلوم أن هذا الكتاب لأبي حامد الغزالي وله تآليف أخرى. [22]

6 . عبد السلام التونسي: هو أبو محمد عبد السلام التونسي درس على عمه عبد العزيز وكان عالما لا تأخذه في الله لومة لائم وهو أحد شيوخ الخليفة عبد المؤمن بن علي الكومي، وكانت وفاته بتلمسان عام 589 هـ ودفن بالعباد، ثم دفن الشيخ أبو مدين شعيب بعد وفاته بجواره في روضته . [23]

7 . أبو عبد الله بن عبد الحق : هو أبو عبد الله محمد بن عبد الحق بن سليمان اليعفري. ولد سنة (537 هـ) فقيه مقرئ محدث ومتكلم. من أهل تلمسان ، أخذ بها عن أبيه ، وعن أبي الحسن ابن أبي قنون ، وأبي علي الحسن بن الخراز وغيرهما، وعن كثير من العلماء بفاس ومراكش وسبتة وإشبيلية، وكان جماعة للكتب الجليلة، وجيها عند السلاطين والأمراء، معظما عند الخاصة والعامة، وولي قضاء تلمسان مرتين فأعدل وأجزل، وأخذ عنه خلق كثير من رجال العلم، وله مصنفات كثيرة أجلها" المختار في الجمع بين المنتقى والاستذكار" في الحديث، وكتابا في "غريب الموطأ"، و"الإقناع في كيفية الإسماع" ، و" نظم العقود ورقم الحلل والبرود" وغير ذلك .توفى بتلمسان سنة(625 هـ) [24].

الهوامش

1) انظر:يحي بن خلدون/ بغية الرواد تقديم وتعليق عبد الحميد حاجيات ج1ص 85 عبد الرحمن بن خلدون/ العبر ج13ص 156 .157.
2) انظر: مبارك بن محمد الهلالي الميلي ج2 ص351
3) انظر: عثمان الكعاك/ موجز تاريخ الجزائر ط تونس 1344 هـ
4) انظر: يحي بن خلدون/ بغية الرواد تقديم وتحقيق عبد الحميد حاجيات ج1 ص86
5) انظر: يحي بن خلدون/ بغية الرواد تقديم وتحقيق عبد الحميد حاجيات ج1 ص86
6) انظر: أبو عبيد الله البكري/ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص76-77 .
7) انظر عبد الرحمن بن خلدون/ العبرج13 ص 156.
8) انظر عبد الرحمن بن خلدون/ العبرج13 ص 156.
9) انظر نفس المصدر السابق/ العبرج13 ص 156.
10) انظر عبد الحميد حاجيات/تلمسان مركز الإشعاع الثقافي في المغرب الأوسط" مجلة الحضارة الإسلامية العدد الأول أبريل 1993 ص 35-36
11) راجع المقال السابق ص37
12) راجع المقال السابق ص37
13) انظر أبو عبيد الله البكري/ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب نشردي سلان باريس 1965 ص77
14) عبد الرحمن بن خلدون / المصدر السابق ج13 ص 159 - 161.
15) انظر الجزائر في التاريخ مجموعة من المؤلفين ج3 ص340
16) انظر يحيي بن خلدون/ بغية الرواد ج1 تقديم وتحقيق وتعليق عبد الحميد حاجيات ص 100 - 132
17) راجع رابح بونار/ المغرب العربي/تاريخه وثقافته الطبعة الثالثة ص179
18) راجع يحي بن خلدون/بغية الرواد ج1ص127 و158 ،رابح بونار المرجع السابق ص179
19) راجع يحي بن خلدون/ المصدر السابق ج1 ص127و 158
20) راجع يحي بن خلدون/ المصدر السابق ج1 ص127و 158
21) راجع يحي بن خلدون/بغية الرواد ج 1ص عبد الرحمن بن خلدون ج 11 ص477.478 ، الناصري/ الاستقصاء في أخبار المغرب الأقصى ج2 106 .107 الحلل الموشية لمؤلف مجهول ص111 الزركشي/ تاريخ الدوتين ص5 ابن الأثير/ الكامل في التاريخ ج8 ص 299 .300
22) انظر يحي بن خلدون / نفس المصدر السابق ج1 ص101.100 و ص 133 .134
23) انظر يحي بن خلدون / نفس المصدر السابق ج 1 ص 125 وص 156
24) انظر يحي بن خلدون / نفس المصدر السابق ج 1 ص 112 . 113وص 144 .145 الجزائر في التاريخ مجموعة من المؤلفين ج3 ص343